الفصل الثانى

بين الفوناتيك والفنولوجيا

الفوناتيك phonetics و الفنولوجيا phonology يبحث كلاهما فى أصوات اللغة . وإن اختلفت أساليب البحث وجوانبه فى كل منهما بحسب وجهات نظر الدارسين . والمصطلح الأول أكثر شيوعاً واستعمالا من الثانى وأوسع منه فى التطبيق كذلك إذ ليس من النادر أن يطلق ويراد به الدراسات الصوتية بعامة ؛ فيشمل حينئذ ما يقع تحت الفنولوجيا عند إرادة التخصيص . وقد كان هذا الإطلاق الواسع هو العرف السائد فى القديم وحتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً :

ولما تقدم الدرس الصوتى بفضل الجهود المتواصلة ومساعدة الأجهزة والآلات ، استطاع العلماء أن يقفوا على حقائق صوتية لم تكن معروفة لهم من قبل ، واكتشفوا أن للصوت جوانب يقتضى كل جانب منها النظر بأسلوب يختلف عما يتبع مع الجانب الآخر ، ووجدوا أنه من الأوفق والأنسب أن يخصص فرع من العلم أو منهج من الدرس لكل من هذه الجوانب أو لكل مجموعة منها .

فكان أن وزّعوا الدراسة الصوتية على هذين الفرعين اللذين آثرنا تسميتهما هنا بالفوناتيك والفنولوجيا بطريق التعريب لا الترجمة قصداً إلى الدقة فى التعبير . أما مجال كل منهما وحدوده وعلاقتهما بعضهما ببعض ، فقد تعددت الآراء فى ذلك وتنوعت وفقاً لمبادئ الدارسين وفلسفتهم فى النظر إلى الحقائق الصوتية وإلى طبيعة اللغة ذاتها .

والفوناتيك عند مقابلته بالفنولوجيا يصبح ذا مدلول ضيق نسبياً ؛ إذ هو يطلق حينئذ ويراد به دراسة الأصوات من حيث كونها أحداثاً منطوقة بالفعل actual speech events لها تأثير سمعى معين audible effect ، دون نظر فى قيم هذه الأصوات أو معانيها فى اللغة المعينة : إنه يعنى بالمادة الصوتية لا بالقوانين الصوتية . ويخواص هذه المادة أو الأصوات بوصفها ضوضاء noise ، لا بوظائفها فى التركيب الصوتى للغة من اللغات :

ولهذا السبب قد رأينا أن نعرب المصطلح phonetics إلى فوناتيك لا أن نترجمه ، لأن

ترجمته إلى « علم الأصوات » — فى سياق المقابلة بينه وبين الفنولوجيا — قد تؤدى إلى اللبس[١] . فقد يؤخذ على أن المقصود به دراسة الأصوات بعامة . دون تفريق بين جوانب هذه الأصوات أو منهج البحث فيها . ولم نشأ كذلك أن نترجمه إلى « علم الأصوات العام » كما يفعل بعض الدارسين معتمدين على صفة العموم فى ميدانه وطريقة البحث فيه ؛ لأن هذه الصورة العربية إنما تناسب المصطلح الإنجليزى الآخر وهو general phonetics . وهذا الاصطلاح الأخير — وإن كان ليس من النادر إطلاقه على ما يقابل الفنولوجيا — إنما يؤتى به عادة لتأكيد ناحيتين اثنتين :

الأولى كون هذا العلم إنما يوجه اهتمامه نحو القضايا الصوتية فى عمومها بما فى ذلك ما قد يجد له مكانًا مناسبًا فى الفنولوجيا عند القائلين بالتفريق أو عند إرادة التفريق . وحقيقة الأمر أن معظم الأعمال فى « علم الأصوات العام » — إن لم تكن كلها — تنتظم مسائل ومشكلات صوتية من الفرعين كليهما : الفوناتيك والفنولوجيا .

أما الناحية الثانية : التى يقصد إليها عند استعمال هذا المصطلح فتتمثل فى التنبيه على عدم قصر بحوث هذا الفرع ومناقشاته على أصوات لغة بعينها . وفى بيان أنه معنى بالصوت اللغوى فى عمومه والنظر فى مشكلات هذا الصوت بوصفه خاصة مشتركة بين اللغات جميعًا .

والمصطلح الثانى وهو phonology (الفنولوجيا) فتمكن ترجمته — من وجهة نظرنا إلى وظيفته — إلى « علم الأصوات التنظيمى » أو « علم وظائف الأصوات » . على أساس أنه يعنى بتنظيم المادة الصوتية وإخضاعها للتقعيد والتقنين ، أو أنه يبحث فى الأصوات من حيث وظائفها فى اللغة . وكلا الجانبين من صميم اختصاصات الفنولوجيا[٢] .

---

(١) والتعريب هنا هو تعريب للمصطلح الإنجليزى phonetics لا المصطلح الفرنسى la phonét que وإن كانت الصورة المعربة تشبهه فى النطق ؛ لأن هذا المصطلح الفرنسى إنما يكثر إطلاقه على الدراسات الصوتية التاريخية أو ما يشار إليها — بطريق النص — بالمصطلح : Phonétique historique .

(٢) التعريب إلى فنولوجيا هو تعريب للمصطلح الإنجليزى Phonology لا المصطلح الفرنسى Phonologie الذى يغلب إطلاقه عند الفرنسيين وبخاصة فى البحوث التقليدية ؛ على الدراسات الصوتية الوصفية descriptive (فى مقابل التاريخية التى يسمونها عادة : Phonétique historique) سواء أكانت فوناتيكية صرفة أم فوناتيكية وفنولوجية معاً . والترجمة إلى « علم الأصوات التنظيمى » هى من صنعنا (انظر كتابنا : قضايا لغوية . القاهرة سنة ١٩٦٢) . أما الترجمة إلى « علم وظائف الأصوات » فهى من عمل المرحوم الزميل الدكتور محمد أبو الفرج فى كتابه : « فقه اللغة » وهى ترجمة أوفق وأوضح مما فعلنا . ويترجم الدكتور تمام حسان Phonology إلى « علم التشكيل الصوتى » ؛ انظر له : مناهج البحث فى اللغة .

وقد جاء التفريق – أو محاولة التفريق – بين الفوناتيك والفنولوجيا نتيجة لتقدم البحث فى الأصوات : عندما أدركوا أن الصوت الواحد أو ما كان يسمى كذلك هو فى الواقع ذو صور نطقية عدة ، تتنوع بتنوع السياق الذى يقع فيه . وقد لاحظوا أن هذا التنوع ليس مقصوراً على بعض الأصوات دون بعض . أو على نطق بعض الأفراد دون غيرهم . وإنما وجدوه قاعدة عامة فى كل الأصوات ، وخاصة مشتركة بين كل الناطقين باللغة المعينة .

لقد أدركوا أن الصوت المعين وليكن الكاف مثلا (على ضرب من التمثيل) يختلف نطقه من سياق إلى آخر : فهو يوصف وصفًا بأنه من أقصى الحنك مهموس . ولكن النقطة الدقيقة لنطقه تختلف فى الواقع باختلاف ما يجاوره من حركات . فقد تكون إلى الخلف أو الأمام قليلا فى هذه المنطقة بحسب نوع الحركة التالية له . وهذا الصوت المهموس قد يجهر أحيانًا فى بعض المواقع ، كما فى نحو « أكبر » فى الكلام غير المتأنى أو فى بعض الأساليب اللغوية ، حيث تقرب من صوت الجيم المسمى جيم القاهرة [g] فى صفة الجهر .

وهكذا وجد رجال الأصوات أنفسهم أمام سؤال ضخم يحتاج إلى إجابة واضحة حاسمة . وتساءلوا فيما بينهم :

هل الكاف فى هذه الحالة صوت واحد أم عدة أصوات ، وما أسس الأخذ بهذا الاحتمال أو ذاك ؟ إذا كانت صوتًا واحداً ، فما موقفنا من تلك الصور النطقية المتعددة لهذا الصوت ، وهى صور أكدت وجودها الأدوات والأجهزة المعملية الدقيقة ؟ وإذا كانت عدة أصوات ، أهى أصوات مستقلة ، أم أنها ذات خواص مشتركة تجمع بينها . ومن ثم يمكن ضمها تحت اسم واحد ؟ .

بالبحث المتواصل والدرس الطويل ، استطاعوا فى بداية الأمر أن يؤكدوا أن صور هذا الصوت (على وجه المثال) لا يمكن نسبتها إلى صوت آخر كالجيم أو القاف ، إذ الفروق الصوتية بين هذه الصور وبين هذين الصوتين فروق واضحة .

أما الفصل بين صور هذا الصوت فقد أخذ وقتًا طويلاً من التفكير ولكنهم فى نهاية المطاف توصلوا إلى الإجابة الحاسمة .

لقد قرروا أن الفروق بين صور الصوت الواحد هى فروق نطقية محضة ، جاءت

نتيجة وقوع هذا الصوت فى سياقات صوتية مختلفة . وهى فروق ليست ذات وظيفة لغوية، أو ليست عاملا فى تفريق المعانى بين الكلمات . فالكلمة « أكبر » لم يزل معناها القاموسى واحداً سواء أكانت كافها مهموسة صرفة أم لحقها شىء من الإجهار ، وكذلك الحال إذا وقعت الكاف قبل الضمة أو قبل الكسرة مثلا . فهى فى كلتا الحالتين ذات قيمة لغوية واحدة . وهى كونها كافًا وليست جيما أو قافًا مثلا .

ثم توصلوا إلى الجزء الثانى من الإجابة ؛ وهو الجزء الأهم فى الموضوع إذ قرروا أن الفروق الصوتية التى يمكن الاعتمادعليها فى الحكم على هذا الصوت أو ذاك بأنه مجرد اختلاف نطقى سياقى ، أو صوت مستقل ذو كيان خاص إنما هى الفروق التى تؤدى إلى اختلاف المعانى فى الكلمات . فالكاف (بهذا الوصف) يؤدى استعماله إلى هذا الاختلاف ، حيث نقول « كال » فى مقابل « جال » و « قال » فنحصل على كلمة مستقلة ذات معنى مختلف عن الكلمتين الأخريين . وكان ذلك بفضل استخدام الكاف فى هذه الكلمة التى تتفق فى كل مكوناتها الصوتية مع زميلتيها باستثناء هذا الصوت وحده . أما الصور النطقية المختلفة للكاف فلا تؤدى إلى هذه النتيجة . وهى نتيجة ــ كما رأيت ــ ذات قيمة لغوية ، أى وظيفة صوتية ، كما يعبر رجال الأصوات أحياناً .

هذا اللون من التفكير كان البذرة الخصبة والأساس الأول لظهور نظرية ماسموه بالفونيم phoneme ، أو ما تمكن ترجمته « بالوحدة الصوتية » phonetic unit .

ونظرية الفونيم ذاتها تحتاج إلى بحث طويل (سنأتى بإيجاز موجز له فى نهاية هذا الكتاب) حيث تكثر المناقشة حولها وتختلف الآراء اختلافًا واسعًا حول تحديد المقصود بالفونيم . ولسوف نكتفى هنا بالإشارة إلى نقطتين لهما علاقة وثيقة بموضوع الحديث .

النقطة الأولى : الفونيم ـ على أحسن الأقوال وأقربها إلى الصحة من وجهة نظرنا ، هى وحدة صوتية قادرة على التفريق بين معانى الكلمات ، وليست حدثًا صوتيًا منطوقًا بالفعل فى سياق محدد . فالفونيمات أنماط للأصوات types of sounds ، والمنطوق بالفعل هو صورها وأمثلتها الجزئية التى تختلف من سياق إلى آخر . فالكاف فونيم وكذلك الجيم والقاف . أما الصور النطقية المختلفة لكل واحدة منها فهى أمثلتها variants أو ما تسمى phones أو allophones ، والأخير أكثر استعمالا وأحدث من سابقه كذلك. والفونيمات ــ بهذا

المعنى — محدودة معدودة فى كل لغة ولكن عصورها النطقية أو الأحداث النطقية الفعلية كثيرة كثرة فائقة .

النقطة الثانية : لكى يكون البحث علمياً . لابد من الوصول إلى قواعد صوتية عامة . وهذا يقتضى تجريد الوحدات وهى الفونيمات من هذا العدد الهائل من الأحداث النطقية الفعلية . وكان لابد — فى نظر الكثيرين — من منهجين دراسيين :

أحدهما : على الأقل — يهتم بدراسة هذه الوحدات أو الفونيمات . هذا المنهج هو ما عرف فيما بعد بالفنولوجيا phonology . فالفنولوجيا — فى بداية أمره — فرع من البحث الصوتى خصص أساساً لدراسة الفونيمات ومشكلاتها . وذلك بالطبع لا يكون إلا فى إطار لغة معينة لارتباط الفونيمات بالمعانى ؛ وليس من المعقول أن ننظر فى المعانى إلا فى إطار لغة معينة .

وهذا النوع من التفكير الصوتى تاريخ طويل لا يعنينا منه فى هذا المجال إلا القول بأنه بدأ يلوح فى الأفق اللغوى فى أواخر النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وكان من أوائل من أدركوا الفرق بين الأصوات بوصفها وحدات وأنماطاً . وبوصفها أحداثاً نطقية واقعية : عالم اللهجات السويسرى ج . ونتلر J. Winteler الذى استطاع أن يميز بين نوعين من المقابلات أو المعارضات الصوتية Phonetic oppositions :

أحدهما : يستعمل فى اللغة للتفريق بين المعانى والوظائف النحوية للكلمات .

وثانيهما : لايفيد هذا الغرض الوظيفى .

وهذا الخط التفكيرى فى عمومه بالنسبة لجوانب الصوت نلحظه كذلك بصورة ضمنية فى الآثار المبكرة لكل من سويت Sweet الإنجليزى ؛ وتلميذه الدانمركى يسبرسن Jespersen كما يظهر ذلك مثلا فى الأبجدية الصوتية التى ابتكرها سويت لكتابة اللغة والتى عرفت باسم Broaëd Romic Alphabet [1] كما يبدو هذا التفكير واضحاً فى تلك المناقشات التى أثارها يسبرسن فى بحثه Phonetic Grundfragen (١٩٠٤) وهناك فى هذا البحث ينتهى يسبرسن إلى ذلك الرأى الذى يكاد يتفق مع ما يتردد الآن فى بعض الأوساط اللغوية من أن

---

(١) الواقع أن كل أبجدية — صوتية أو إملائية — تتبع مبدأ : « رمز واحد لكل وحدة صوتية » تتضمن فكرة التفريق بين جوانب الأصوات ؛ إذ اتباع هذا المبدأ يعنى أن واضعيها يدركون الفرق بين الوحدات الصوتية للغة (الفونيمات) وأن كل وحدة منها يكفى رمز واحد لتصويرها ؛ إذ اختلاف صورها فى النطق اختلاف غير ذى وظيفة لغوية . وبهذا يسوغ لنا القول بأن أبجدية اللغة العربية هى واحدة من تلك الأبجديات التى تتضمن هذه الفكرة ذاتها .

للفيصل فى الحكم على جوانب الأصوات إنما هو استعمالها للتفريق بين المعانى . أو عدم استعمالها لهذا الغرض [١] .

ولكن الأمر بالنسبة لهذين العالمين الأخيرين مر هكذا دون أن يتوصلا إلى وضع نظرية أو رسم منهج يقتفى من بعدهما للنظر فى هذه الجوانب ، واكتفيا بمعالجة الموضوع كله بأسلوب فوناتيكى صرف phonetic not phonological ؛ على وفق النمط التقليدى السائد حينئذ .

ولم يذهب دى سوسير de Saussure فى هذا الموضوع إلى أبعد من ذلك بكثير . إنه استطاع أن يدرك جوانب الصوت ، وأن يميز بين ما سماه الجانب المادى material والجانب غير المادى incorporeal . والأول يطابق الحركات العضوية لجهاز النطق articulatory movements ، ويطابق الثانى الانطباعات السمعية لهذه الحركات auditory impressions

وبالرغم من هذا الإدراك الجانبي للصوت لم يقترح دى سوسير منهجاً أو أسلوباً جديداً لدراسة هذين الجانبين أكثر من ذلك الأسلوب التقليدى الذى يتبعه رجال الفوناتيك العاديون الذين كانوا يستخدمون النهج العام الذى لم يكن بعد قد أخذ بمبدأ التفريق بين فرعى الأصوات (الفوناتيك والفنولوجيا) ، والذى لم تكن قد وضحت لديه فكرة التمييز بين جوانب الأصوات وضوحاً كاملا . غاية الأمر أن دى سوسير قد خالف هؤلاء التقليديين فى استعمال مصطلحاتهم . فاستعمل المصطلح فونولوجيا phonology =) phonologie بالفرنسية) ، وأطلقه على تلك الدراسة العامة التى كانت تعالج عادة تحت اسم الفوناتيك phonétiqs =) phonétique بالفرنسية) عند غيره من الدارسين . وخصص هذا الأخير للدراسة التاريخية للأصوات . ومعنى هذا أن دى سوسير لم يزل يتفق مع هؤلاء التقليديين فى دراسة الأصوات بأسلوب عام وفى عدم تنويع الدراسة الصوتية إلى فرعين ، يختص كل واحد منهما بدراسة جانب من جانبي الأصوات ، ولكنه خالفهم فقط فى تسمية هذه الدراسة العامة بالفنولوجيا لا بالفوناتيك ، وهى مخالفة — كما ترى — لا تجاوز دائرة استعمال ذاتها [٢] .

---

(١) انظر : مالمبرج : اتجاهات حديثة فى علم اللغة ص ٧٥ .

(٢) فتفريق دى سوسير بين الفنولوجيا والفوناتيك إذن ليس مطابقاً لجانبى الأصوات ؛ وإنما تفريق من نوع آخر ؛ فالأول وهو الفنولوجيا وقفه هذا العالم على دراسة أصوات الكلام parole =) speech بالفرنسية) ، أما الثانى فوظيفته دراسة تطور الأصوات فى اللغة . انظر ص ؟؟ وما بعدها .

أما أول من نص على وجوب هذا التنويع وعلى ضرورة وجود فرعين مستقلين من العلوم لدراسة جانبي الأصوات فهو بودوان دى كورتينى Boudouin de Courtenay . لقد أعلن هذا الباحث أن هناك فروقاً جذرية بين أصوات الكلام speech sounds ، وبين الصور الذهنية للأصوات phonetic images التى تتألف منها كلمات اللغة [١] . وانطلاقاً من هذا الإدراك أصر كورتينى على ضرورة وجود نظامين من البحث الصوتى لتناول الأصوات بطريقة علمية : أحد هذين النظامين أو العلمين ينبنى على أسس فيزيائية وفسيولوجية وموضوع البحث فيه الأصوات المادية . وثانيهما يعتمد على قواعد علم النفس ، ووظيفته دراسة الصور الذهنية للأصوات ومالها من وظائف وقيم فى اللغة .

وقد سمى كورتينى العلم الأول الذى خصصه لدراسة الأصوات المادية « بعلم الأصوات العضوى » physio — phonetics على حين أطلق على الثانى المصطلح « علم الأصوات النفسى » psycho — phonetics ؛ وقصر عمله على دراسة الصور الذهنية للأصوات ، تلك الصور الذى أطلق عليها هذا العالم نفسه اسم الفونيم phoneme ، كما يتضح ذلك من قوله : إن . الفونيم هى المعادل النفسى للصوت » .

وقد كان من نتيجة هذا الوضوح فى التفريق جانبي الأصوات وبين العلمين اللذين يقومان بدراستهما أن استطاع دى كورتينى لأول مرة أن يضع ما يمكن أن تسمى نظرية الفونيم [٢] .

وبالرغم من أن أول بحث لكورتينى فى هذا الموضوع قد ترجم إلى اللغة الألمانية سنة ١٨٩٥ . فقد مرت نظريته دون أن يشعر بها أحد فى القارة الأوربية وفى روسيا نفسها

---

(١) يبدو أن كورتينى (مثل دى سوسير) يفرق بين الكلام speech واللغة المعينة a language (= langue بالفرنسية) . والأول معناه الأحداث المنطوقة بالفعل : أما اللغة المعينة فهى مجموعة القواعد اللغوية المخزونة فى ذهن الجماعة اللغوية المعينة .

(٢) وضع كورتينى نظرية الفونيم من وجهة نظر معينة ؛ ولكن هذه المبادرة كانت المنطق الحقيقى لكل النظريات الأخرى فى الموضوع نفسه . أما المصطلح فونيم phoneme فيرجع فضل استعماله فى مقابل الصوت sound إلى واحد من تلاميذه هو كروزيفسكى Kruszewski ؛ حيث يقرر كورتينى نفسه : « أن اقتراح استعمال الفونيم لتعنى شيئاً مختلفاً عن الصوت المنطوق (= phone) يرجع إلى كروزيفسكى » . وقد كان ذلك فى مقال لهذا الأخير باللغة الروسية نشر سنة ١٨٧٩ فى « كازان » Kazan . انظر : فيرث ؛ دراسات فى علم اللغة ؛ ص ١ — ٢ .

– باستثناء بيترسبيرج Petersburg — لفترة من الزمن ، إلى أن بدأ الناس فى أماكن متفرقة من العالم يتجهون هذا الاتجاه نفسه . وهو اتجاه يتمثل فى صورتين :

١ — التفريق بين الصوت المنطوق أو ما يشار إليه أحياناً بالمصطلح phone أو allophone أو sound وبين الفونيم أو ما يسمى « الصورة الذهنية للصوت » أو « الوحدة الصوتية على اختلاف وجهات النظر فى الموضوع .

٢ — ضرورة وجود فرعين لعلم الأصوات ، يختص كل واحد منهما بدراسة أحد هذين الجانبين .

والنقطة الأولى نقطة واسعة تحتاج إلى دراسة خاصة ، نأمل أن نأتى بها فى المستقبل القريب بإذن الله .

أما فيما يتعلق بفرعى الأصوات ، فقد جرى العرف على تخصيص الفوناتيك لدراسة الجانب الأول والفنولوجيا للنظر فى الجانب الثانى ومشكلاته .

ولكن وجهات النظر قد تعددت بالنسبة للعلاقة بين هذين الفرعين ، وحدود كل منهما ومدى استقلال أحدهما عن الآخر . ولسوف نقصر كلامنا هنا على أربع مدارس هى بمثابة الأعلام البارزة على الطريق ، وهى فى الوقت نفسه تجمع شتات الآراء الجزئية الكثيرة التى تسمع هنا وهناك معبرة عن ذات القضية .

أولاً — مدرسة براج :

هذه المدرسة التشيكية لها كبير فضل فى البحث اللغوى الحديث ، وامتازت من غيرها بكثير من النظرات الخاصة فى دراسة اللغة ، من هذه النظرات فكرتها عن الفرق بين الفوناتيك والفنولوجيا . ولقد تأثر رواد هذه المدرسة فى نظراتهم هذه تأثراً واضحاً بآراء العالم السويسرى الكبير دى سوسير ؛ وبخاصة فى نقطتنا هذه .

لقد تأثروا برأيه فى الفونيم وهو الجانب غير المادى للصوت أو الصورة الذهنية له ، وهو جانب وظيفته التفريق بين معانى الكلمات ، كما تأثروا — فى نقطتنا هذه على الأقل — برأيه المشهور فى التمييز بين اما سماه parole (= speech أو speaking بالإنجليزية) ومعناه الكلام المنطوق بالفعل الصادر من المتكلم الفرد فى الموقف المعين ، وبين ما سماه langue (= the language أو a language) ويقصد بها اللغة المعينة ، واللغة المعينة فى رأيه لا تنطق ،

ولا يتكلمها أحد وإنما يتكلم الناس الكلام طبقاً لقواعدها . وهذه القواعد أمور عقليةمخزونة فى ذهن الجماعة اللغوية المعينة .

وهذا التفريق بين جانبي الكلام كان المنطق الأساسى للتفريق بين فرعى الأصوات عند هذه المدرسة .

فالفوناتيك هو علم أصوات الكلام والفنولوجيا علم أصوات اللغة والأول أقرب إلى علوم الطبيعة منه إلى علم اللغة . إنه عندهم ليس فرعًا من علم اللغة linguistics ، إنه شيء ثانوى ، ليس هدفًا فى ذاته ، وإن كان وسيلة من وسائل دراسة الأصوات على مستوى الفونولوجيا . ولكن هذا الأخير جزء لا يتجزأ من علم اللغة .

الفوناتيك إذن — عند هذه المدرسة — وظيفته دراسة الأصوات المنطوقة بالفعل فى الكلام فينظر فى حركات أعضاء النطق وأوضاعها ، كما يلاحظ الذبذبات الهوائية الناتجة مباشرة عن هذه الحركات والأوضاع . أما الفنولوجيا فلا يهتم بالأصوات بهذا الوصف ، وإنما عليه أن يدرس الفونيمات ، وهى العناصر المكونة للمعنى اللغوى ، وهى عناصر غير مادية ، إنها عناصر عقلية ، ويكون تحقيقها المادى بوساطة الصوت الفعلى أو النطق .

ورجل الفوناتيك يجرى وراء أحداث النطق فيلاحظ مصدرها (وهى أعضاء النطق) ، ويدرس وظيفة هذا المصدر بصورة تفصيلية ، على نحو ما يجرى فى دراسة العمليات الميكانيكية . أما رجل الفنولوجيا فإنه يعمق النظر فى الشعور أو الوعى اللغوى the linguistic consciousness للبيئة المعينة ، فيدرس الصور الذهنية الصوتية ذات القيم المميزة differential المكونة للكلمات واللغة ذاتها .

أو بعبارة تروبتسكوى Trubetszkoy أحد رواد هذه المدرسة الأوائل : إن الفوناتيك يهتم بما ينطق الإنسان فى الحقيقة والواقع عندما يتكلم ، على حين يهتم الفنولوجيا بما يظن أو يتصور الإنسان أنه ينطقه .

هذا التفريق الواضح بين هذين الفرعين يصر عليه رجال مدرسة براج (على الأقل فى الفترات الأولى من تكوينها) . وقد نادى بهذه الفكرة أول الأمر ثلاثة من روادها الكبار ، هم : تربتسكوى وجيكبسون Jakobson وكارسيفسكى Karcewski (ويكتب كذلك

(Karcevskij) [١] وكان الأول أكثر طموحاً ونشاطاً فى هذا المجال ، حتى لقد نسبت إليه هذه الفكرة ، كما لو كان — وحده — هو صاحبها ومبتكرها . وربما ساعد على ذلك أن تربتسكوى قد لخص هذه النظرية وخرج بها على الناس فى أثره الجليل Anleitung zu Phonologischen Beschreibungen (١٩٣٥) وفى عمله الآخر الذى نشر بعد وفاته بعنوان: Grundzuge der Phonologie (١٩٣٩) وترجم إلى الفرنسية سنة ١٩٤٩ باسم Principes de phonologie ولكن بذرة العمل الأصلية قد وضعها الثلاثة معاً فى اقتراح قدموه سنة ١٩٢٨ إلى المؤتمر اللغوى العالمى الذى عقد فى لاهاى فى هذا التاريخ .

ولقد سار فى هذا الاتجاه نفسه — الفصل التام بين الفوناتيك والفنولوجيا — كل أولئك الذين تبعوا دى سوسير فى أساس هذا الفصل ، هذا الأساس الذى يتمثل فى التفريق بين « الكلام » بوصفه نشاطاً عضوياً و« اللغة » المعينة بوصفها قواعد عقلية ذات نظم بارعة مخزونة فى الذهن . وبالرغم من أن متأخرى « مدرسة براج » — وبعض المتقدمين منهم كذلك — لم يرقهم هذا الفصل التام وبالرغم من محاولتهم تقريب الشقة بينهما : فإن هذه الفكرة لم تزل تسيطر على أذهان الكثيرين من الباحثين المحدثين حتى وقتنا هذا .

من هؤلاء مثلا أولمان صاحب البحوث المشهورة فى علم الدلالة . لقد صرح هذا الدارس أكثر من مرة بأن الفوناتيك هو علم أصوات الكلام ، وأن الفنولوجيا هو علم أصوات اللغة ، أى الفونيمات . والأول وهو المختص بدراسة الأصوات من جانبها العضوى والفيزيائى ليس جزءاً من علم اللغة ، على حين تنتمى الفنولوجيا إلى هذا العلم . ويظهر هذا الاتجاه واضحاً من طريقة تقسيمه لفروع علم اللغة ، حيث يخصص مكاناً مستقلاً للفنولوجيا ضمن فروع علم اللغة ، ولكنه يهمل الفوناتيك نهائياً ولا يذكره فى هذا التقسيم [٢] .

ويبدو أن فى هذا الفصل بين فرعى الأصوات نوعاً من الإغراء والجاذبية حتى لنلحظه فى أعمال بعض أولئك الذين لا يقولون — صراحة — بالتفريق بين الكلام واللغة . من هؤلاء

---

(١) هؤلاء العلماء الثلاثة روسيون . وقد كانوا يعملون وهم فى منفاهم بعد الثورة الروسية فى أماكن متفرقة من أوربا ؛ ولكنهم بالرغم من ذلك تمكنوا من تكوين مدرسة لغوية ذات صيت ذائع ؛ أو على الأقل ساهموا بشكل مؤثر فى تكوين هذه المدرسة التى تعرف حتى الآن بمدرسة براج اللغوية Prague School of linguistics.

(٢) See, Ullmann, The Principles of Semantics, pp. 29 — 30, 36.

(أسس علم الدلالة ص ٢٩ — ٣٠ و ٣٦) وانظر له أيضاً : (دور الكلمة فى اللغة ص ٣٠ ط ٢ ، ترجمة المؤلف) .

« جليسن » الذى يقسم علم اللغة إلى فرعين اثنين رئيسيين هما : الفنولوجيا والجراماتيكا (علم القواعد) grammar ؛ على حين يجعل الفوناتيك نظاماً من الدراسة مستقلا عن علم اللغة ، وإن كان هذا الأخير يعتمد على بحوث الأول ودراساته كما يعتمد على علوم أخرى لها صلة باللغة .ومهما يكن من أمر فإن جليسن هو الآخر ينظر إلى اللغة نظرة تشبه تلك التى رآها من قبل العالم السويسرى دى سوسير .فبالرغم من أنه لم يفرق بين نوعين من النشاط اللغوى عند الإنسان فإنه ينظر إلى التركيب اللغوى نظرة تتضمن الثنائية dichotomy . إن التركيب اللغوى عنده مكون من عنصرين، أحدهما : الأصوات .

وثانيهما : الفكر ، أو ما سماهما التعبير اللفظى expression والمحتوى content . والأول منهما بذاته — أى غير مرتبط بالثانى — ليس من اختصاص اللغويين . وإنما هو من عمل الفيزيائى ؛ ويدرسه اللغوى لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بعنصر المحتوى ؛ ومنهما معاً يتكون التركيب اللغوى linguistic structure[1] .

هذه النظرة — وإن لم تكن سوسيرية صرفة — قد قادته إلى نتيجة تتفق تماماً مع أولئك الذين اتبعوا دى سوسير فى فكرة التفريق بين الكلام واللغة .

وبهذا نصل إلى نتيجة واضحة ، تتلخص فى العبارة التالية : إن الفصل بين علمى الأصوات (الفوناتيك والفنولوجيا) يطابق التفريق بين جانبى الكلام الإنسانى (الكلام المنطوق واللغة المعينة) . أو بعبارة أخرى . نقول : إن القائلين بثنائية الكلام الإنسانى هم أنفسهم — ومن سار على دربهم — الذين رأوا الثنائية فى دراسة الأصوات وقسموها إلى علمين منفصلين ، يختص أولهما — وهو الفوناتيك — بدراسة أصوات الكلام المنطوق ، والثانى — وهو الفنولوجيا — يعنى بدراسة أصوات اللغة[2] : وهى الصور الذهنية المكونة لها ، أى الفونيمات أو الوحدات الصوتية القادرة على التفريق بين معانى الكلمات ، وفقاً للآراء المختلفة فى معنى الفونيم

وهذا الفصل التام بين علمى الأصوات معترض عليه اعتراضاً شديداً من كثير من الدارسين ، كما أن الأساس الذى بنى عليه هذا الفصل — وهو التفريق بين اللغة والكلام — غير مقبول كذلك لدى معظم الدارسين المحدثين .

---

(١) See, Gleason, An Introduction to Descriptive Linguistics, p. 2, II. 239.
(جليسن : مدخل إلى علم اللغة الوصفى ؛ ص ٢ و ١١ و ٢٣٩) .

(٢) يستثنى من هؤلاء دى سوسير الذى وجه الفصل بين الفوناتيك والفنولوجيا وجهة مختلفة ، وتبعه بعضهم فى ذلك . انظر ص ٤١ وما بعدها .

إن اللغة والكلام فى نظر هؤلاء جانبان لشىء واحد ، فكلام الفردليس شيئًا منفصلا عن لغة الجماعة ؛ إنه مثل أو صورة لها ، واللغة هى مجموع هذه الأمثلة أو الصور . وكلاهما فردى وجماعى معًا وكلاهما مادى وعقلى . وإذا جاز لنا التفريق بينهما ـ نظريًا ـ فإننا نستطيع تسميتهما بلغة الفرد ولغة الجماعة . أما فى الواقع والحقيقة فلا يمكن الفصل بينهما بحال .

وكذلك الأمر بين « علمى » الأصوات ؛ إنهما نظامان من الدرس الصوتى يوجهان معًا نحو موضوع واحد هو الأصوات اللغوية ؛ فرجل الفوناتيك لا يقنع بمجرد جمع المادة الصوتية ووصفها على أساس عضوى وفيزيائى ، وإنما ينظر بعد هذا الجمع والوصف إلى مرحلة أخرى أهم ، تخضع مادته للتنظيم والتقعيد أو الكشف عن وظائف هذه الأصوات التى جمعها ووصفها فى المرحلة الأولى .

ورجل الفنولوجيا لا يستطيع أن يقوم بعمله — الممثل أساسًا فى عملية التقنين والبحث عن قيم الأصوات فى اللغة — دون اعتماده على مادة الفوناتيك ، إن هذين العلمين يكمل أحدهما الآخر ، ولا يعدو أن يكون الفرق بينهما فرقًا فى المنهج أو أسلوب الدرس أو خطواته . وإذا كان لابد من الفصل بينهما فإنما يقصر ذلك على حالة الضرورة القصوى ، وذلك يتوقف بالطبع على هدف الدراسة ذاتها : فقد تكون الدراسة مركزة على الجانب المادى للأصوات ، أو موجهة فى أساسها إلى الجانب الوظيفى لها . وحينئذ يجوز نعت المنهجين بنعتين مختلفين ، هما الفوناتيك والفنولوجيا ، ولكن بدون أن يغيب عن بالنا شدة ارتباطهما بعضهما ببعض واعتماد أحدهما على الآخر .

ولقد حاول بعض الدارسين تخفيف شدة الفصل بين هذين العلمين بطريق نعت الفنولوجيا بصفة تقرب الشقة بينه وبين الفوناتيك ، فسماه « علم الأصوات الوظيفى » ، Functional Phonetics ، إشارة إلى وحدة موضوعهما ، وإن اختلفا فى المنهج أو خطة البحث .

وفى مدرسة براج نفسها ، نجد عدداً من رجالها ، القدامى والمحدثين على سواء ، لايرتضون هذا الفصل التام بين علمى الأصوات ، ويؤكدون شدة ارتباط أحدهما بالآخر . إنه ارتباط متبادل ، يصوره واحد من كبار رجال هذه المدرسة ؛ ذلك هو « ترنكا » B. Tranka الذى يقول فى هذا الشأن :

« عندما تبدأ الدراسة من الصورة الصوتية وتتدرج فى طريقها حتى تصل إلى القوانين المجردة ، فإنها تجد نفسها فى مجال الفنولوجيا . أما إذا أخذت طريقها ، هذه المرة ، من القوانين المجردة وسارت فى عملها حتى وصلت إلى الصورة الواقعية للأصوات فإنها تجد نفسها فى مجال الفوناتيك . . . إننا إذا علمنا أن الفوناتيك إنما يختلف فقط عن الفنولوجيا فى انتهاج طريق مخالف فى سير الدراسة أدركنا أن مشكلة الحدود الفاصلة بين الظواهر الفوناتيكية والفنولوجية أصبحت غير ذات موضوع ، لأن هذين النوعين من الظواهر متكاملان ومتعاونان فى سبيل تحقيق أهدافهما الفردية والاجتماعية »[1] .

والحق أن مسألة الفصل هذه لم تعد ذات قيمة عملية فى الوقت الحاضر ، وليس لها الآن من يشايعها أو يأخذ بها لعجزها عن الوفاء بأغراض الدارسين ، إذ الاقتصار على أحد الفرعين دون الآخر لا يمكن أن يؤدى إلى نتيجة صحيحة فيما يختص بأصوات اللغة . وهذا الكلام نفسه ينطبق على أولئك الذين يبدو أنهم من أنصارها فى زمننا هذا ، ذلك لأن كلامهم عن الفصل بين الفوناتيك والفنولوجيا لا يجاوز الناحية النظرية الصرفة . أما أعمالهم التطبيقية ودراساتهم التحليلية للأصوات فتقدم أقوى الأدلة وآكدها على ارتباط العلمين بعضهما ببعض أشد ارتباط ، إذ نلاحظ آثارهما ومبادئهما وقوانينهما متناثرة هنا وهناك فى هذه الأعمال وتلك الدراسات .

والاتجاه السائد الآن هو العمل على تقريب المسافة بين هذين الفرعين بصورة نظرية وتطبيقية معًا ، حتى لقد أصبح المصطلح Phonetics « علم الأصوات » وحده كافيًا للإشارة إليهما معًا دون تحديد أو تفريق ، اللهم إلا إذا أريد النص على دراسة الجانب الوظيفى للأصوات وعلى إخضاع هذه الأصوات لعملية التجريد قصداً إلى وضع القوانين العامة لها ، ففى هذه الحالة فقط ، يستعمل المصطلح الآخر وهو Phonology الفنولوجيا .

ومهما يكن من أمر ، فليس يطعن هذا الذى نقوله فى قيمة الدور الذى لعبته مدرسة براج فى الدرس الصوتى . إن الاعتراض هنا موجه إلى فكرة الفصل التام بين علمى الأصوات لا إلى مجرد المقابلة بينهما . وحقيقة الأمر أن جهود هذه المدرسة فى هذا المجال (وبخاصة

---

(١) See, Josef Vachek, The Linguistic School of Prague, p. 42.
(يوسف فاشك : مدرسة براج اللغوية ص ٤٢) .

جهود تروبتسكوى فى الفنولوجيا) هى بمثابة النواة لكل ما أتى بعدها من أعمال فى الدراسات الصوتية . ويستوى فى ذلك ما اتفق معها وسار على هديها ، أو ما خالفها ووقف موقف المعارضة منها ، أو ما يعد ابتكاراً أو تجديداً فى دراسة الأصوات من أية زاوية أتيتها .

إن موقف رجال هذه المدرسة من هذه القضية يشبه تماماً موقف العبقرى السويسرى دى سوسير من موضوع التفريق بين الكلام واللغة . كلاهما ثورة ، وكلاهما منطلق أصيل لكثير من الدراسات اللغوية الحديثة . وبغيرهما ما كان هذا البحر الزاخر من البحوث اللغوية على مختلف المستويات فى كل أنحاء العالم . ولكن كان الأولى بهذه الثورة — بحسب تعبير لغوى حديث — أن تكون تطويراً للقديم وتنويعاً لمسالكه وتجويداً لمناهجه وخططه ، وفى كل الحالات يجب أن نقرر أن الفنولوجيا الحديثة بكل اتجاهاتها إنما ترجع إلى أصولها الأولى التى أرست قواعدها مدرسة براج اللغوية .

ثانياً — دى سوسير :

ومن الطريف أن دى سوسير صاحب الأساس الذى بنى عليه الفصل بين علمى الأصوات لم ينح هذا المنحى البراجى . أو بعبارة أخرى ، إن تفريقه التام بين الكلام واللغة لم يقده إلى مقابلة علمى الأصوات لجانبى الكلام الإنسانى على الوجه الذى رآه أصحاب مدرسة براج أو غيرهم . إنه — حقيقة — يفرق بين الفوناتيك Phonetics (= Phonétique بالفرنسية) وبين الفنولوجيا Phonology (= Phonologie بالفرنسية) . ويخصص كل واحد منهما لنوع معين من الدراسة ولكن على الوجه التالى :

الفوناتيك عنده علم تاريخى ، أى يبحث فى تطور الأصوات ، لأنه خصص فى بداية الأمر لهذا النوع من الدراسة . ويجب أن يبقى كذلك . وهو فرع أساسى من علم اللغة Linguistics (= Linguistique) . أما الفنولوجيا فيدرس الأصوات من الناحية العضوية ، أو ميكانيكية النطق ، وهو نظام من الدرس مساعد لعلم اللغة ومقصور قصراً تاماً على الكلام Speech (= Parole) [1] . ومعنى هذا أن دى سوسير يختلف عن مدرسة براج وغيرها فى هذا الموضوع فى النقاط التالية :

---

(١) (الترجمة الإنجليزية) See, de Saussure, Course in General Linguistics, p. 33.
(دى سوسير : محاضرات فى علم اللغة العام ص ٣٣) .

١ ــ الفوناتيك دراسة تاريخية فقط عنده . على حين يجوز أن تكون تاريخية ووصفية عند هذه المدرسة وغيرها .

٢ ــ الفنولوجيا عنده (بهذا المعنى الضيق . انظر فيما بعد) تطابق الفوناتيك عند أغلب الدارسين ، حيث قصره على دراسة أصوات « الكلام » التى تكون الموضوع الأصلى للفوناتيك عندهم .

٣ ــ وضع الفوناتيك والفنولوجيا من حيث انتماؤهما أو عدم انتمائهما إلى علم اللغة يختلف عند الفريقين فالأول عند دى سوسير جزء لا يتجزأ من علم اللغة ، على حين لا يعدو الثانى عنده (وهو الفنولوجيا) أن يكون نظاماً ثانوياً من البحث يقدم المساعدة والمعونة لهذا العلم ، وذلك على العكس تماماً مما تراه المدارس الأخرى فى الحالتين كلتيهما .

على أن هذا المعنى الضيق للفنولوجيا ، وهو ما يتمثل فى توجيهه نحو دراسة الأصوات من ناحيتها العضوية والفسيولوجية وقصره على أصوات الكلام المنطوق دون اللغة (بالمعنى الذى ارتضاه هو) ــ هذا المعنى قد توسع فيه دى سوسير فيما بعد بحيث أصبحت الدراسات الفنولوجية عنده تقرب من « علم الأصوات العام » عند غيره من الدارسين من حيث اتساع حقل الدراسة وطبيعة موضوعاتها (انظر ص ٤٣ وما بعدها) .

إن وظيفة الفنولوجيا عنده هى النظر فى الأصوات بوصفها أنواعاً أو أنماطاً عامة . وهذه الأنماط نفسها كثيراً ما يطلق عليها الفونيمات (= الوحدات الصوتية) . والفونيمات عند دى سوسير ــ بحسب فهمنا لكلامه ــ لها جانبان ، جانب عضوى يطابق حركات أعضاء النطق articulatory movements والثانى نفسى أو ماسماه بالانطباع السمعى auditory impression ومن الخطأ أن يقصر رجل الفنولوجيا عمله على الجانب العضوى دون الجانب النفسى .

وعمل الفنولوجيا موجه نحو تحديد هذه الوحدات ووصفها وتصنيفها إلى مجموعات . غير أن تحديدها والتعرف عليها فى الكلام إنما يتم بوساطة الانطباع النفسى ، فإنه ليس من السهل أن نحدد أين يبدأ الصوت وأين ينتهى فى سلسلة الكلام ، بطريق الإشارة إلى الناحية العضوية ، ولو استعنا فى ذلك بتصوير حركات أعضاء النطق تصويراً فوتوجرافياً . ولكن الانطباع السمعى للأصوات يخبرنا بذلك ويدلنا عليه فى يسر .

أما وصف هذه الأصوات فليس يتم إلا بالإشارة إلى العمل النطقى نفسه ، وهنا لابد

من العودة إلى جهاز النطق ودراسة ميكانيكيته [١] .

وهكذا نرى أن دى سوسير يدخل فى نطاق الفنولوجيا دراسات عضوية فسيولوجية وأخرى نفسية . غير أنه عند وصف الأصوات يقصر عمله على الناحية العضوية ، وهو فى هذه الحالة ينظر إلى الأصوات منعزلة وبوصفها أنماطاً أو وحدات نطقية ذات سمات مميزة .

وهذا الجزء الأخير من النظر السوسيرى يقرب الفنولوجيا عنده من علم الأصوات العام ، أو قل إنه يكاد يلتقى مع الفنولوجيا عند غيره من الدارسين . ويصبح الفرق بينه وبين غيره مقصوراً على جهتين اثنتين . هما ربطه الفنولوجية بالكلام المنطوق دون اللغة ، وإخراجه من علم اللغة وجعله ثانوياً بالنسبة لهذا العلم . وهو فى هذين الأمرين يقف موقفاً مخالفاً لغيره من علماء اللغة .

على أن دراسة فاحصة للجزء المخصص للفنولوجيا فى كتابه الشهير « محاضرات فى علم اللغة العام » تشعرنا بأن دى سوسير يجد صعوبة بالغة فى محاولة ربط الفنولوجيا بما سماه «الكلام» (بمعنى الأحداث الفعلية المنطوقة) دون اللغة (بمعنى القواعد والقوانين العامة المتفق عليها من أهل البيئة الخاصة) . وكثيراً ما نراه يعرج على مسائل صوتية لا تمكن نسبتها إلى الكلام المنطوق ، وإنما هى من خواص اللغة أو صميم الدراسة الصوتية فيها . من ذلك مثلا إشاراته المتكررة إلى الأصوات بوصفها أنماطاً أو أنواعاً من الوحدات أو ما سماها species . وليس يغيب عن ذهن أحد أن الأنماط الصوتية لا تقع فى النطق الفعلى وإنما هى وحدات تستخلص من هذا الكلام المنطوق ، وتنتقل بعد هذا التجريد إلى النظام الصوتى للغة لا الكلام . وهذه العملية ذاتها — عملية التجريد والتصنيف للأصوات — قد نسبها دى سوسير نفسه إلى الفنولوجيا وعدها واحدة من وظائف رجال هذا العلم . حيث يصرح فى أحد السياقات بقوله : « إذا ما انتهى رجل الفنولوجيا من تحليل عدد كاف من سلاسل كلامية منطوقة فى لغات مختلفة . عليه بعد ذلك أن يتعرف على العناصر التى تتكون منها كل لغة وأن يصنف هذه العناصر » [٢] .

---

(١) معنى هذا أن دى سوسير يفرق بين ما سماه التحديد والوصف . إن التحديد معناه التعرف على حدود الصوت فى الكلام ، أما الوصف فيعنى ملاحظة خواصه النطقية وتسجيلها . والأمران كلاهما (التحديد والوصف) من عمل الفنولوجيا ، غير أن التحديد يتم بطريق نفسى والوصف بطريق الإشارة إلى أعضاء النطق .

(٢) انظر : دى سوسير ؛ المرجع السابق ص ٤٠ .

وهذا التصريح نفسه يؤكد ما ألمعنا إليه سابقا من أن دى سوسير قد توسع فى مدلول الفنولوجيا — من الناحية التطبيقية على الأقل — ولم يلتزم التحديد النظرى الضيق الذى وصفه أول الأمر والذى يفيد قصر الفنولوجيا على دراسة أصوات الكلام المنطوق من ناحيتها العضوية والفسيولوجية . ويفيد هذا التصريح كذلك أن الفنولوجيا عنده — من الناحية العملية — تطابق علم الأصوات العام بالمعنى التقليدى أو بالمعنى الذى يأخذ به أولئك الذين لا يفرقون بين الفوناتيك والفنولوجيا تفريقاً واسعاً ؛ بل إنه فى كثير من مظاهره ومواضع الدرس التى عالجها دى سوسير فى إطاره ينحو نحو الفنولوجيا بالمفهوم الذى أخذ به دارسون آخرون .

ومما يؤكد هذا القرب بين فنولوجيا دى سوسير وفنولوجيا غيره مناقشته للمقطع syllable ومشكلاته فى إطار الفنولوجيا وتأكيده بأن هذه الدراسة لها مكان فى هذا العلم [1] . ومن المعروف أن دراسة المقاطع هى من صميم الفنولوجيا لا الفوناتيك عند القائلين بالتفريق بين هذين العلمين .

وليس موضوع التوسع فى مدلول الفنولوجيا عند دى سوسير يقف عند هذا الحد . إن علم الفنولوجيا الذى عرضنا له حتى الآن ، يسميه هذا العالم فنولوجيا الوحدات أو الأنماط species الصوتية ، عند ما تؤخذ منعزلة ، وحين يتم التعرف عليها بطريق الانطباع النفسى ويجرى وصفها بالإشارة إلى ميكانيكية النطق .

ولكن هذه الوحدات أو الأنماط لها حالات أخرى تظهر فى سلسلة الكلام المتصل ، وهى حالات تستدعى النظر وتستحق اهتمام الدارسين . ومن ثم يجب — فى رأيه — أن يكون هناك فرع آخر للفنولوجيا يقوم بهذا العمل الجديد . هذا الفرع يسميه دى سوسير « فنولوجيا الكلام المتصل » combinatory phonology . فالوحدات الصوتية أو الفونيمات تأخذ فى الكلام المتصل صوراً مختلفة بحسب السياق الصوتى الذى تقع فيه . وهذه الصور أو الظواهر ترتبط ارتباطاً تاماً بما يجاور هذه الفونيمات فى الكلام وتعتمد عليه .

فإذا كان علم الفنولوجيا التقليدى (أى من وجهة نظره السابقة) يقوم بوضع القوانين العامة لأصوات اللغة ، فإن فنولوجيا الكلام المتصل عليه أن يحدد العلاقات بين الفونيمات فى الكلام المنطوق ، وأن يعين الإمكانيات التى تعرض لكل فونيم ، مشيراً إلى مدى اعتماد

---

(١) السابق ص ٥٦ — ٥٧ .

الفونيمات بعضها على بعض ، فى سلسلة الكلام . وهذه الدراسة — فى نظره — فى غاية الأهمية بوصفها خطوة أساسية إلى تحديد المقاطع وبيان تركيبها الصوتى[١] .

هذه الدراسة الفنولوجية الأخيرة تطابق ما يسمى « فوناتيك الكلام المتصل » combinatory phonetics أو phonetics of juncture عندأولئك الذين لا يفرقون تفريقاً حاسماً بين الفوناتيك والفنولوجيا ، أو تدخل فى مجال ما يسميه فيرث « بأنماط التطريز الصوتى أو الظواهر التطريزية » prosodic features . كما أن بعض نقاط هذه الدراسة تنتظمها البحوث الخاصة بما يسميه بعض الأمريكان بالفونيمات الثانوية ، secondary phonemes أو الفونيمات غير التركيبية أو فونيمات ما فوق التركيب suprasegmental phonemes[٢] .

وهذه الظواهر التطريزية وتلك الفونيمات الثانوية تنتمى فى عمومها إلى الفنولوجيا بالمعنى السائد الآن ، ما يطلق عليه فى أكثر الأوساط الأمريكية ذلك الاسم الجديد نسبياً phonemics : علم الفونيمات[٣] .

على أن التحديد الضيق للفنولوجيا الذى قرره دى سوسير أول الأمر حين وقفه (نظرياً) على دراسة أصوات الكلام المنطوق من الناحية العضوية ، لم يمر دون تأثير فى عدد من الدارسين .

إن هذا التحديد الضيق الذى يجعل الفنولوجيا مطابقة للفوناتيك فى الوظيفة وخطة البحث قد أخذ به لغويون تقليديون . من هؤلاء ومن أشهرهم جراى Gray الذى يرى أن للغة جانبين :

أحدهما . عضوى ، أو ميكانيكى physiological أو mechanical .

وثانيهما : نفسى أو غير ميكانيكى non-mechanical أو psychological . وهذه الثنائية فى اللغة وضع لها جراى ثنائية تقابلها فى فروع اللغة التى تختص بدراستها .

---

(١) فى موضوع الفنولوجيا فى عمومه « راجع دى سوسير » المرجع السابق ص ٣٢ — ٣٤ ، ٣٨—٤٠ ، ٤٩ — ٥١ ، ٥٦ — ٥٧ ، وبخاصة ص ٣٣ ، ٣٩ — ٤٠ ، ٥٠ — ٥١ ، ٥٧ .

(٢) ممن استعمل المصطلح « فوناتيك الكلام المتصل » مالمبرج فى كتابه « علم الأصوات » . ومن أمثلة الظواهر التطريزية أو الفونيمات الثانوية أو الفونيمات غير التركيبية : الإجهار والإهماس ، تطويل الحركات أو تقصيرها إلخ .

(٣) انظر ص ٥١ وما بعدها .

فخصص الفنولوجيا والصرف لدراسة الجانب الأول ، أما الجانب الثانى فيقابله علم النحو وعلم الدلالة .

وبهذا يتضح أن هذا الباحث قد قصر وظيفة الفنولوجيا على دراسة الأحداث الصوتية المنطوقة بالفعل ؛ إذ المقصود بالجانب العضوى للغة هنا هو الجانب اللفظى أو الصوتى المحض الذى هو نتيجة مباشرة لتلك الحركات العضوية لجهاز النطق والمرتبط بميكانيكية النطق كذلك .

وحقيقة الأمر أن استعمال الفنولوجيا فى هذا المعنى الضيق – ذلك المعنى الذى يرادف الفوناتيك عند القائلين بالتفريق بينه وبين الفنولوجيا – هذا الاستعمال لا يزال مطبقًا فى بعض البيئات اللغوية التقليدية ، وبخاصة فى فرنسا وغيرها من البلاد التى لا تزال تتبع هذا النهج التقليدى .

ثالثاً – المدرسة الإنجليزية :

نعنى بالمدرسة الإنجليزية هنا تلك المدرسة التى أسسها فيرث Firth والتى لا تزال مبادئها واتجاهاتها الرئيسية تمثل الخط التفكيرى العام عند تلامذته وأشياعه من الدارسين من الإنجليز وغيرهم .

فى الأصل وحتى وقت ليس بالبعيد كانت الفنولوجيا عند الإنجليز بعامة تطلق على الدراسات التاريخية للأصوات (على العكس تمامًا مما فعل دى سوسير ومن تابعه انظر ٥١ وما بعدها) . على حين كان الفوناتيك ذا مدلول واسع يشمل البحث الصوتى فى عمومه من الناحية الوصفية بدون تفريق بين جانبى الأصوات (المادى وغير المادى) ، وبدون تمييز بين نوعين أو فرعين من الدراسة . فلم يكن هناك نظام مخصص لدراسة الأصوات من ناحيتها العضوية والفسيولوجية ونظام آخر مستقل يبحث فى هذه الأصوات من حيث وظائفها وقيمها فى التركيب الصوتى للغة .

كان الفوناتيك phonetics يشمل ما يدخل الآن فى إطار الفوناتيك بالمعنى الضيق والفنولوجيا بالمفهوم الدقيق كليهما . وقد كان هذا ملحوظًا فى أعمال رائدهم الأول سويت ودانيال جونز ومدرسة فيرث نفسها فى بداية نشأتها ،واستمر كذلك حتى هذه اللحظة ، ما لم يكن هناك داع أو ضرورة ملحة تدعو إلى التخصيص .

وفى فترة من الزمن . عندما شاع منهج التفريق بين العلمين وانتشرت فكرة الفصل بينهما على طريق البحوث الكثيرة التى قام بها العلماء فى القارة الأوربية ، اضطر الإنجليز إلى تعديل نظرتهم نحو الموضوع وإلى الأخذ بهذه الفكرة . ولو من الناحية النظرية ، وفى حدود رسموها لأنفسهم بوضوح .

ويعبر فيرث عن هذا الموقف الإنجليزى تجاه هذه القضية بكلام صريح . جاء فيه: « بالرغم من أننا فى هذا البلد (= إنجلترا) قد بدأنا فى استعمال المصطلح فنولوجيا للدلالة على فرع معين من فروع علم اللغة . تابعين فى ذلك العرف الأوربى ، فإن عملنا هذا ينطوى على خسارة لنا من نوع ما . لأن الفنولوجيا الإنجليزية علم تاريخى، وليس منهجاً متزامناً من مناهج البحث . ولكنا — كما هى العادة — تمشينا مع الاستعمال العالمى ، حيث إننا لا نستطيع أن نفرض المعنى المقصود بالمصطلح phonetics (فوناتيك) عندنا على أولئك الذين يستخدمون المصطلحات la phonétique ، phonetik و Lautlehre و phonetics[1] . فإذا كان الفنولوجيا يمكن وصفه — فى إيجاز — بأنه علم قواعد الأصوات ورموز الكتابة . فإن مصطلحنا phonetics يغطى هذا المعنى . ولقد سرنا على هذا المنوال — بصورة أو بأخرى — منذ قرون طويلة »[2] .

وبالرغم من أن الإنجليز قد أخذوا بمبدأ التفريق بين الفوناتيك والفنولوجيا، فإنهم لم ينساقوا إلى تلك المبالغة التى وقع فيها غيرهم من الأوربيين الذين فصلوا بين العلمين فصلا تامًّا ، والذين حاولوا تخصيص كل واحد منهما لضرب من البحث مستقل عما عينوه للآخر . والحق أن محاولة التفريق بين العلمين عند الإنجليز لم تجاوز الناحية النظرية ، أى عندما يعمدون إلى تقديم خطة للبحث اللغوى للدارسين والكشف عن مراحل هذه الخطة وتدرجها من مستوى إلى آخر ، وفقاً لطبيعة المادة وحاجة البحث الذى يقوم به الدارس . وهنا يأخذون

---

(١) المصطلح الأول فرنسى والآخران ألمانيان . ومعنى الثلاثة — بصفة عامة — « علم الأصوات » بالمعنى الضيق المقصور على دراسة الأصوات من الناحية العضوية الفسيولوجية ، مع احتمال تطبيقه على البحث التاريخى فى الأصوات كذلك ، فيما يختص بالمصطلح الفرنسى بالذات . وهذا معنى يخالف المفهوم الإنجليزى للمصطلح phonetics الذى يتضمن دراسة أوسع وأشمل بحيث يدخل فيها ما يسمى بالفنولوجيا أيضاً .

(٢) انظر : فيرث ، دراسات فى علم اللغة ص ٩٢ . والفنولوجيا المتزامن هو المقابل للفنولوجيا التاريخى . و « المتزامن » ترجمة للمصطلح synchronic وهو يشير إلى الدراسة المقصورة على فترة محددة من الزمن ، بخلاف التاريخى diachronic الذى يعنى النظر فى اللغة — على أى مستوى — على فترات زمنية متعددة .

فى ترتيب هذه المراحل أو المستويات فيبدءون بالفوناتيك . فالفنولوجيا فالصرف إلخ . وليس فى هذا الترتيب ما يعنى الفصل بين هذين العلمين أو بينهما وبين غيرهما . وإنما هو ترتيب لخطوات العمل التى ينبغى اتباعها . وهى خطوات متكاملة يأخذ بعضها بحجز البعض وترمى كلها إلى هدف رئيسى واحد . هو بيان الحقائق اللغوية . وإنه لمن النادر أن نجد عملا تطبيقياً واحداً (فى غير مجال التخصص الدقيق) يقصر بحوثه على مسائل أحد الفرعين دون الآخر .

ولقد حرص فيرث وأصحابه على تأكيد قوة الاتصال بين الفرعين . واعتماد أحدهما على الآخر . فيقرر أنه بالرغم من أن هذين الفرعين يمثلان مستويين مختلفين من الدراسة ، فمن الواجب أن تسير أعمالهما فى مواءمة واتساق تامين . بحيث تأتى نتائج البحث فيهما مؤتلفة متكاملة [١] .

ويشير إلى هذا المعنى نفسه تلميذه روبنس الذى يصرح أكثر من مرة بأن الفوناتيك والفنولوجيا كليهما يهتمان بموضوع واحد من الدراسة ، هو الأصوات اللغوية ، وإن كان هذا الاهتمام موجهاً إلى الأصوات من زوايا مختلفة . فالفوناتيك يتسم بالعموم ، فينظر فى الأصوات دون تركيز على وظائفها وقيمها فى اللغة المعينة . على حين يتصف الفنولوجيا بالخصوصية فيعنى بالكشف عن وظائف هذه الأصوات فى اللغة أو اللغات الواقعة تحت النظر والدراسة . إن الفنولوجيا لا تعدو أن تكون الفوناتيك موجهة نحو وظائف الأصوات وإخضاعها للتنظيم . ومن ثم تكثر تسمية الفنولوجيا بعلم الفلغوناتيك الوظيفى أو التنظيمى functional or systemic phonetics [٢] .

ويعود فيرث فينص على أن الفوناتيك فرع متخصص من فروع علم اللغة ، وليس يشمل فى دائرته ما يسمى بالفنولوجيا فقط . بل إنه قد تفرع هو نفسه إلى عدة فروع متخصصة كذلك .

فهناك الفوناتيك التجريبى الذى ينتقل بالأصوات إلى مجال الفيزياء ليعرف خواصها ومكوناتها الطبيعية . وهناك كذلك الفوناتيك بالمعنى الضيق pure or narrow phonetics . وهو المعنى يجمع المادة الصوتية وتسجيلها وتحليلها من الناحية الفسيولوجية والفيزيائية . إن

---

(١) فيرث : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٢) روبنس : المرجع السابق ١٢٧ .

رجل الفوناتيك بهذا المعنى الضيق يجرى وراء الأصوات بهذا الوصف . وإنه ليسعد ويطرب كلما اكتشف أصواتاً جديدة .

ومن فروع هذا العلم كذلك ما يمكن أن يسمى الفوناتيك بالمعنى الواسع . وهو قريب الاتصال والارتباط الشديد بالفنولوجيا . فهما وإن اختلفا فى طريقة البحث فإنهما يتفقان — على الأقل — على مبدأ رئيسى واحد . ذلك أن الفوناتيك بهذا المعنى لا يكتفى — شأنه فى ذلك شأن الفنولوجيا ذاتها — بجمع الأصوات ووصفها وصفاً عاماً . وإنما يقوم بالإضافة إلى ذلك بعملية تصنيف هذه الأصوات ووضعها فى نظام فنولوجى ، بوصفها عناصر مكونة لهذا النظام فى اللغة المعينة [1] .

وينتهى الإنجليز من هذا كله بنتيجتين واضحتين ، هما :

١ — لا يمكن الفصل بين الفوناتيك والفنولوجيا بحال من الأحوال ، وكلاهما جزء لا يتجزأ من علم اللغة ، وليس من الخطأ تسميتهما معاً باسم عام واحد ، هو « علم الأصوات » phonetics بدون نعت مميز لأى من الاتجاهين .

٢ — الفنولوجيا — فى حالة التفريق بينه وبين الفوناتيك — لا يعدو أن يكون منهجاً لتنظيم مادة هذا الأخير أو تقعيدها ، أو هو الفوناتيك نفسه أصبح وظيفياً وعملياً .

ولقد طورت المدرسة الإنجليزية — وبخاصة فى السنوات الأخيرة — الدراسات الفنولوجية بحيث أصبحت ذات شقين أو فرعين متصلين غير منفصلين . أحد هذين الفرعين هو « فنولوجيا الوحدات » ووظيفته البحث فى الأصوات بوصفها أنماطاً للأصوات units أو classes وهى مادة التركيب الصوتى للغة المعينة . وهذه الأنماط أو الوحدات هى مجموع الأصوات الصامتة consonants والحركات vowels ، أو هى ما يطلق عليها الفونيمات « الأساسية » فى مناهج الدرس اللغوى عند بعض المدارس الأخرى ، وبخاصة المدرسة الأمريكية .

أما الفرع الثانى فهو ما يسميه روبنس « فنولوجيا الظواهر التطريزية » أو « فنولوجيا التطريز الصوتى » prosodic phonology [2] . ولا ينظر هذا الفرع فى تلك الظواهر الصوتية التى تنسب إلى النوع السابق من الوحدات حين تؤخذ مفردة أو منعزلة ، وإنما فى هذه الظواهر التى تنسب إلى سلسلة المنطوق كله والتى تمتد خلاله ، سواء أكان هذا المنطوق جملة

---

(١) فيرث : السابق ص ٣٤ : ٣٥ .

(٢) روبنس : المرجع السابق ، ص ١٥٧ وما بعدها .

أو عبارة أو كلمة أو مجموعة من المقاطع . ومن أمثلة هذه الظواهر . ظاهرة الطول والقصر فى الأصوات والنبر وبداية المقاطع ونهاياتها والتنغيم إلى غير ذلك من الظواهر الصوتية التى لا تدخل فى التركيب الصوتى نفسه . وهى ذات العناصر التى يطلق عليها الأمريكان « الفونيمات الثانوية » أو « الفونيمات فوق التركيب » .

وقد سار الإنجليز على هذا النهج طبقًا لمبدئهم الرئيسى فى الدرس اللغوى بعامة . وهو وجوب اتباع أكثر من نظام أو خطة فى التقعيد اللغوى . إذا ما كانت الأمثلة الجزئية لا يمكن إخضاعها لنظام مفرد أو خطة واحدة . كما فى حالتنا هذه . فالوحدات الصوتية والظواهر التطريزية — بالرغم من اتفاقها فى أنها جميعاً ذات وظائف وقيم صوتية — لا تزال تختلف فيما بينها فى مكوناتها وطبيعتها الصوتية .

وهذا النهج الذى يطلقون عليه « مبدأ تعدد الأنظمة » polysystemic principle : جاء بمثابة النقد لاتجاه الأمريكان فى معالجة هذين النوعين من المادة الصوتية حيث يدرسونهما معًا تحت عنوان واحد هو « علم الفونيمات » phonemies ، متبعين فى ذلك مبدأ مخالفًا هو مبدأ « توحد الأنظمة » monosystemic principle .

وهناك فى بريطانيا اتجاهان آخران فرعيان :

أحدهما : يتمثل فيما أخذ به أولمان من التفريق التام بين الفوناتيك والفنولوجيا ، على نحو ما فعلت مدرسة براج . كما بينا فيما سبق [1] .

أما الاتجاه الثانى فيظهر فى أعمال جماعة من اللغويين المهتمين بالجانب التطبيقى للدراسات اللغوية فى بعض جامعات إنجلترا واسكوتلاندا .

يسير اتجاه هؤلاء اللغويين — فى أساسه — على الخط التفكيرى الذى رسمه فيرث لهذا الموضوع . فهم يتفقون معه فى أن الفوناتيك والفنولوجيا — وإن كانا مستويين من البحث متميزين — لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر من الناحية التطبيقية على الأقل . إذ الأول يجمع المادة الصوتية ويقدمها إلى الثانى الذى يخضعها للتنظيم والتقعيد . وبهاتين الخطوتين معًا تتحدد قيم هذه الأصوات ووظائفها فى اللغة المعينة .

غير أن لهؤلاء اللغويين وجهة نظر خاصة فيما يتعلق بوضع هذين المستويين ومكانهما فى إطار الدراسات اللغوية . إن الفوناتيك عندهم ليس فرعًا من علم اللغة . (بصيغة

---

(١) انظر ص ٣٥ وما بعدها .

المفرد) linguistics ، وإنما هو نظيره وقسيمه ، وهما معاً يكونان ما أطلقوا عليه هم « علوم اللغة » linguistic sciences أما الفنولوجيا فى نظرهم فهو مستوى من البحث ذو وضع خاص : إنه يمثل حلقة الاتصال بين الفوناتيك وعلم اللغة ، وهو فى الوقت نفسه تابع لهما .

وهذه النظرة الأخيرة التى اختلفوا فيها مع فيرث ومدرسته ترتبط برأيهم فى تحديد مجالات البحث فى اللغة وفى طبيعة المادة اللغوية ذاتها (انظر ص ٥٨) .

رابعاً — المدرسة الأمريكية :

لقد مر النظر الأمريكى فيما يختص بموضوع العلاقة بين الفوناتيك والفنولوجيا بثلاث مراحل متداخلة مترابطة ، نشير إليها بإيجاز فيما يلى :

المرحلة الأولى :

وهذه مرحلة تشبه ما كان يجرى عليه الإنجليز فى بداية اهتمامهم بدراسة الأصوات على نحو علمى بصورة ما . لقد كان الأمريكيون فى هذه المرحلة يطلقون المصطلح « فنولوجيا » على الدراسة التاريخية للأصوات ، مستخدمين « الفوناتيك » فى ذلك النوع من الدراسة الصوتية العامة التى لم تكن تعنى بالتفريق الواضح بين جانبى الأصوات ، والتى كانت تنتظم عدداً غير قليل من مسائل الفنولوجيا بالمعنى الحديث . وقد استمر هذا الاستعمال العام للمصطلح « فوناتيك » ملحوظاً فى أعمالهم حتى وقت قريب ، وبخاصة بين أولئك الذين كان همهم الرئيسى تقديم النظريات العامة فى دراسة الأصوات والذين وجهوا عنايتهم إلى الدرس اللغوى فى عمومه ، أى بدون تركيز خاص على الجانب الصوتى للغة .

المرحلة الثانية :

حين تقدمت الدراسات الصوتية نسبياً أحس الأمريكان — كغيرهم — بضرورة تخصيص منهجين متميزين لدراسة الأصوات . فأطلقوا « الفوناتيك » على ذلك الفرع الذى يعنى بالنظر فى الجانب المادى للأصوات ، ذلك الجانب الممثل فى تلك الآثار السمعية الناتجة عن عمليات النطق . ولكنهم — بعكس التقليد السائد فى إنجلترا وغيرها من البلاد الأوربية — لم يشاءوا — أو لم يشأ أكثرهم — أن يستعملوا المصطلح « فنولوجيا » لإطلاقه على على دراسة الأصوات من جانبها الوظيفى اللغوى ، وربما كان ذلك منهم لشعورهم بأن استعمال

«الفنولوجيا» فى هذا المعنى فيه صعوبة ظاهرة ؛ لارتباطه بمعنى قديم ثابت فى أذهان الناس، وهو إطلاقه على الدراسات التاريخية للأصوات . ولهذا اختاروا اسمًا آخر ، هو فى الواقع تلخيص مادى لموضوع البحث نفسه . ذلك الاسم هو « الفونيم » phoneme (الوحدة الصوتية ذات العنصر المميز) الذى أطلقوه على منهج من البحث متميز وظيفته النظر فى أنماط الأصوات ووحداتها من حيث دورها وقيمتها فى اللغة . وهذه الأنماط والوحدات ذاتها سموها « الفونيمات » .

وبالرغم من هذا التفريق بين فرعين أو منهجين لدراسة الأصوات . فإنا نلحظ ثلاثة أمور مهمة فى هذه المرحلة :

١ — لم يشاءوا أن يفصلوا فصلا تامًّا بين منهج « الفوناتيك » ومنهج « الفونيم » ، فبين مادتهما اختلاط وتداخل واضحان فى هذه المرحلة . بل إن منهج «الفونيم » — والمفروض فيه أن يعنى بالأصوات من ناحيتها التجريدية والوظيفية — يعرض فى كثير من خطواته للجانب النطقى والسمعى للأصوات . ولسنا نعدم أن نجد منهم من يكتفى فى كثير من الحالات باستعمال « الفوناتيك » وإطلاقه على الفرعين معًا .

٢ — المنهجان كلاهما يتبعان علم اللغة ويدخلان فى إطاره العام ، وهما بهذا الوصف يمثلان مرحلتين أو خطوتين من مراحل دراسة اللغة .

٣ — ما يدرسه الأمريكان تحت العنوان « فونيم » فى هذه المرحلة يكاد يتفق مع مايبحثه غيرهم فى الفونولوجيا فى تلك الفترة الزمنية المعاصرة لهذه المرحلة .

هذه الأمور الثلاثة تبدو بوضوح فى أعمال الكثيرين من مشاهيرهم ؛ كما فى ذلك السفر الجليل« اللغة » language والمنعوت فى البيئات العلمية « بإنجيل الدراسات اللغوية »لشيخ اللغويين الأمريكان بلومفيلد Bloomfield [1] .

يقرر بلومفيلد أن الفوناتيك يدرس الأحداث النطقية من ناحيتيها العضوية والفيزيائية ولكن بدون نظر إلى المعنى ؛ فإذا ما أخذنا المعنى فى الحسبان ، وجب أن نتناول هذه الأصوات من زاوية أخرى ، وأن نخصص لها أسلوبًا آخر من الدراسة الصوتية . هذا

---

(١) هذا الاتجاه هو السائد كذلك فى ذلك البحث الممتع « موجز فى التحليل اللغوى » Outline of Linguistic Analysis لصاحبيه بلوك وترجر Bloch و Trager ، غاية الأمر أنهما يستعملان المصطلح Phonemics الوحدات الصوتية) بدلا من Phoneme .

الأسلوب قد فصله وشرحه هذا العالم تحت عنوان « الفونيم » فى عدة فصول بين فيها وجهة نظره التى يتضح منها — بما لايدع مجالا للشك — شدة ارتباط هذا الأسلوب بمنهج الفوناتيك واعتماد كل منهما على الآخر اعتماداً كبيراً . ثم يعود فيلخص رأيه فينص على أن الأصوات يمكن تناولها بثلاث طرق :

أولاها : تصنف الأصوات من جانبها المادى فتسجل خواصها النطقية والفيزيائية ؛ ويتم ذلك بوساطة ما سماه «الفوناتيك بالمعنى الضيق » أو « الفوناتيك الصرف pure phonetics» بفروعه الثلاثة : الفوناتيك النطقى ؛ الفوناتيك الفيزيائى ، والفوناتيك المعملى أو التجريبى .

ثانيتها : وتتمثل فى التعرف على الأنماط والوحدات الصوتية المكونة للنظام الصوتى للغة المعينة . بطريق الخبرة والملاحظة الذاتية . وهذه الخطوة هى وظيفة ماسماه هو « علم الأصوات العملى » practical phonetics . وهذا النهج الثانى فى نظره — وهو على حق فيما يقول — ليس نهجاً علمياً ، وإنما هو مهارة وفن .

الطريقة الثالثة : تتلخص فى النظر إلى الأصوات ، لا من زاويتها المادية — نطقية وفيزيائية — وإنما بوصفها وحدات مميزة للمعنى فى اللغة . هذه الطريقة الثالثة هى محور دراسته ومناقشته تحت الاسم « الفونيم » ؛ ولكنه من وقت إلى آخر ؛ ينعتها بالمصطلح « فنولوجيا ». وهذه الطريقة الثالثة تقابل الطريقتين الأوليين معاً ؛ وهى التى تتوج العمل الصوتى ، وتحيله إلى مجموعة من القوانين والقواعد العامة . وهى النهج العلمى الدقيق الذى يجب أن يتبع فى هذا الشأن .

ومع هذا التمييز بين مراحل ثلاث ، لم يحاول بلومفيلد الفصل بينها فصلا يمنحها استقلالا ذاتياً ، وبخاصة فيما يتعلق بالمرحلتين الأولى والثالثة ، وليس من النادر أن يشير إليها جميعاً بالمصطلح العام phonetics ، بل قد يستخدم هذا المصطلح الأخير فى بعض السياقات كما لو كان مرادفاً للمصطلح « الفنولوجيا » phonology . ومما يؤكد هذا الارتباط الوثيق بين هذه الخطوات أو الفروع ضمه لها جميعاً بعضها مع بعض وجعلها جزءاً لا يتجزأ من علم اللغة [1]

---

(١) See, Bloomfield, Language, pp. 74 — 79, 93, 27, 137 — 138.
(بلومفيلد : اللغة ، ص ٧٤ — ٧٩ ، ٩٣ ، ٢٧ ، ١٣٧ — ١٣٨) .

المرحلة الثالثة :

هذه المرحلة — وهى المرحلة المعاصرة — هى امتداد للسابقة . ويتلخص ما بينهما من خلاف فى تعميق الدراسة وتشعبها وفى استخدام بعض المصطلحات الجديدة التى اقتضتها ضرورة البحث . وفى ظهور اتجاهات جزئية أو فردية فى مجال الدراسات الصوتية الحديثة عند الأمريكان .

فى هذه المرحلة استعمل المصطلح phonemics (= علم الوحدات الصوتية) . بدلا من phoneme (= الوحدة الصوتية) . وفى هذا الاستعمال ما يشير إلى أن الدراسة قد خطت خطوات واسعة . وتعمقت مباحثها . حتى صارت علماً بكل خواصه ومميزاته . كما ينبىء عن ذلك اشتقاق هذا المصطلح الجديد الذى صيغ على وزان تلك المصطلحات التقليدية التى تعنى « العلوم » فى اللغة الإنجليزية .

ومن مظاهر تقدم هذه الدراسة وعمقها . أنها تشعبت إلى شعبتين رئيسيتين :

أولاهما : اختصت بالنظر فيما سموه الوحدات أو الفونيمات التركيبية phonemes

والثانية : اهتمت بدراسة تلك الوحدات أو الفونيمات الأخرى التى أطلقوا عليها suprasegmental phonemes أى الفونيمات غير التركيبية أو الفونيمات فوق التركيب . ومثال النوع الأول الأصوات الصامتة ، والحركات بوصفها عناصر مكونة للتركيب الصوتى للغة ؛ أما النوع الثانى فمثاله تلك الظواهر الصوتية التى تنتمى إلى التركيب كله وتمتد خلاله : كالنبر . والتنغيم ، وما إلى ذلك من تلك الظواهر التى ليست جزءاً من التركيب نفسه . وقد كانت فونيمات النوع الأول تسمى « الفونيمات الأساسية » primary phonemes فى المرحلة السابقة . وفونيمات النوع الثانى تسمى بالفونيمات الثانوية أو الهامشية secodnary أو marginal phonemes .

وفى هذه المرحلة كذلك تطورت البحوث وتنوعت فى الفوناتيك بفروعه المختلفة حتى لتظن أن كلا من هذه الفروع قد صار علماً مستقلا بذاته . وربما يظهر ذلك بصفة خاصة فى الفوناتيك الفيزيائى . فلقد أصبح هذا الفرع الشغل الشاغل الآن لشباب الباحثين من رجال الأصوات ، لما فيه من إغراء وإثارة . ولما فى بحوثه من نتائج رائعة تفيد الدارسين لا فى المجال اللغوى فحسب ، وإنما تتعدى فائدتها إلى مجالات إنسانية أخرى . كالاستعانة بها فى

علاج عيوب السمع وهندسة الصوت إلخ .

وهناك فى أمريكا كذلك تنوعت البحوث وتفرعت ، حتى ظهر فى الوجود منهج للبحث اللغوى ، هو فى المجال الوسط بين الفنولوجيا أو علم الفونيمات والصرف . وقد أطلقوا عليه « علم الفونيمات الصَّرْفى » morpho phonemics ؛ ويسمى عند غيرهم الآن « الفنولوجيا الصَّرْفى » morpho phonology ـ أو — بصورة أخصر — morphonology . ولهذا النوع من البحث جذور قديمة تعرفها مدرسة براج تحت هذا الاسم الأخير . ولكن الدراسة الأمريكية فى هذا المجال ، تفوق أية دراسة أخرى فى التنوع والعمق كليهما .

ووظيفة هذا الفرع الجديد النظر فى التركيب الصوتى (الفونيمى أو الفنولوجى) للوحدات الصرفية morphemes . فهو يحلل ويصف ما يعرض لهذه المورفيمات من صور صوتية بحسب السياق الذى تقع فيه . ومثال ذلك فى اللغة العربية مورفيم الرفع فى الأسماء ، فهى ضمة قصيرة [u] فى نحو محمد . ولكنها تكون طويلة [uu] فى الأسماء الخمسة .

ومهما يكن من أمر ، فإنه بالرغم من هذا التنوع والتشعب فى فرعى الأصوات ، الفوناتيك وعلم الفونيمات ، فما زال أغلب الأمريكيين يربطون هذين الفرعين بعضهما ببعض أشد ارتباط وأوثقه . ومن مظاهر هذا الربط نسبتهما معًا إلى علم اللغة . وعدهما فرعين أو منهجين من مناهجه .

على أن هناك من بين رجال تلك المرحلة الثالثة من يميل إلى إخراج الفوناتيك من علم اللغة ، ونسبته إلى علوم أخرى كالفيزياء أو الفسيولوجيا . ووجهة نظرهم فى هذا السلوك أن الفوناتيك إنما يستمد مبادئه وقواعد البحث فيه من هذين العلمين وأضرابهما . هذا بالإضافة إلى أن لهؤلاء القوم رأيًا فى اللغة وطبيعتها يتمشى مع هذه النظرة . ومع ذلك ، يصر هؤلاء القوم — كغيرهم — على تأكيد قوة العلاقة بين الفوناتيك وعلم اللغة .

وليس من النادر أن نجد فى الوقت الحاضر كذلك دارسين أمريكيين يتبعون العرف الأوربى فى استعمال المصطلح « فنولوجيا » فى مكان الاصطلاح الأمريكى المفضل « علم الفونيمات »[1] . ويبدو أنهم إنما فعلوا ذلك قصداً إلى الوضوح ومنعًا للبس والخلط . لعلهم

---

(١) من هؤلاء الدارسين « هوكيت » Hockett فى بحثه المعروف : A Manual of Phonology وما يذكر أيضاً أن « مارتينى » Martinet قد تقبل المصطلح « فنولوجيا » Phonology ، معترضاً على الاسم Phonemics ، لأن طريقة اشتقاقه وصوغه لم تراع قواعد صوغ الكلمات ذات الأصل اليونانى — اللاتينى . وكان الواجب أن يكون المصطلح هو Phonematics .

أحسوا أن استعمال المصطلح الثانى قد يوحى للبعض بأن علم الفونيمات يقصر عمله على البحث فى الفونيمات الأساسية أو التركيبية ، مهملا النوع الآخر منها . الممثل فى الفونيمات الثانوية أو الفونيمات فوق التركيب . ومن ثم كان المصطلح «فنولوجيا» أوفق — فى نظرهم — وأقرب إلى الدقة والصواب . حيث إن مباحثه تنتظم النوعين معًا بدون تفريق .

والحق أن مستعملى المصطلح «علم الفونيمات» لم يهملوا أيًّا من النوعين . وإن كان التركيز — كما يبدو فى أعمال بعضهم — موجهًا نحو النوع الأول . كما أن تسمية النوع الثانى «بالفونيمات الثانوية أو الهامشية» — كما جرى عليه عدد منهم — قد يوحى بأن هناك نوعًا منهما مفضلا وآخر مفضلا عليه ، على حين أن ليس هناك فرق بينهما من أية جهة قصدت .

بين علم الأصوات وعلم اللغة :

بقى أن تشير فى ختام هذا الفصل إلى نقطة لمسنا أطرافها لمسًا خفيفًا فى المناقشات السابقة . وقد رأينا هنا أن نلم بهذه الأطراف لنكون منها صورة واضحة محددة . تلك النقطة نعنى بها العلاقة بين علم الأصوات بفرعيه (الفوناتيك والفنولوجيا أو علم الفونيمات) وعلم اللغة ، وطبيعة هذه العلاقة .

هناك أربعة اتجاهات رئيسية تتعلق بهذا الموضوع ، تبرز لنا من تلك الآثار الضخمة والمادة الغزيرة فى الدراسات الصوتية على فترات مختلفة من الزمن . هذه الاتجاهات تتلخص فيما يلى :

١ — الفوناتيك فرع مستقل عن علم اللغة linguistics وليس جزءاً منه . وإن كان بينهما ارتباط واتصال من نوع ما ، كما يلتمس الثانى العون والمساعدة من الأول . أما الفنولوجيا (ونظيره علم الفونيمات أيضًا) فهو أحد فروع اللغة . وجزء أساسى من مناهجه .

ويأخذ بهذا الاتجاه فريقان من الدارسين . فريق يمثله القائلون بالتفريق بين الكلام المنطوق speech واللغة the language ، باستثناء مبتكر هذا التفريق نفسه وهو دى سوسير . والسر فى عدم انتماء الفوناتيك إلى علم اللغة عند هؤلاء ، هو أن موضوعه وهو الكلام نفسه ليس من مباحث علم اللغة عندهم .

أما الفريق الثانى فنعنى به أولئك الدارسين الذين يعنون — بالدرجة الأولى — بالفوناتيك

وبتعميق الدراسة فيه وفى فروعه . حتى ربطوه ربطاً وثيقاً بعلوم غير لغوية كالفسيولوجيا والفيزياء . بل عدوه فرعاً من هذه العلوم وجزءاً لا يتجزأ من مباحثها .

٢ — بالرغم من أن دى سوسير هو صاحب فكرة التفريق بين الكلام واللغة . تلك الفكرة التى قادت عدداً من الناس إلى الرأى السابق فيما يتعلق بوضع الفوناتيك والفنولوجيا وعلاقتهما بعلم اللغة — بالرغم من هذا فإنه نحا منحى آخر فى هذه النقطة ذاتها . فالفوناتيك عنده — على العكس مما قال السابقون — جزء لا يتجزأ من علم اللغة . على حين يرى أن الفنولوجيا نظام من البحث ثانوى بالنسبة لهذا العلم ، وهو فى الوقت نفسه خاص بالكلام لا اللغة [1] .

٣ — الفوناتيك فرع من فروع علم اللغة ؛ ولكنه فرع جانبى أو هامشى peripheral أما الفنولوجيا فهو فرع أساسى أو مركزى central من هذا العلم . ومن أنصار هذا الرأى « هوكيت » الأمريكى ؛ ويميل نحوه كذلك كثيرون فى الوقت الحاضر ، من بينهم عدد من تلامذه فيرث الإنجليزى .

٤ — الفوناتيك والفنولوجيا (ونظيره علم الفونيات) كلاهما جزء لا يتجزأ من علم اللغة ، وليس أحدهما أهم من الآخر أو أشد ارتباطاً من صاحبه بعلم اللغة . وهذا ما ذهب إليه فيرث وكثيرون من تلامذته ؛ كما هو الرأى السائد عند الكثيرين من الأمريكان الذى أخذوا بمنهج الفونيم أو ما سمى أخيراً « علم الفونيات » فى مقابل الفنولوجيا .

ونستطيع أن نعد بلومفيلد واحداً من أنصار هذا الرأى الأخير ، وإن كان يبدو من جملة كلامه أن العلاقة بين علم الأصوات بفرعيه وبين علم اللغة أقوى بكثير مما قرر هؤلاء . إنه يصرح بأن الطريقة المثلى تقتضينا أن نقسم علم اللغة إلى فرعين اثنين رئيسين ، هما علم الأصوات وعلم الدلالة (السيمانتيك) ؛ فالأول (ويشمل الفوناتيك والفنولوجيا أو الفونيم عنده) يدرس الجانب الصوتى ، والثانى (ويشمل علم القواعد والمعجم) ينظر فى جانب المعنى ومظاهره . وبهذه يتضح لنا أن بلومفيلد قد منح علم الأصوات مكانة ممتازة فى إطار الدراسات اللغوية ، حيث جعله وحده يمثل نصف هذه الدراسات .

---

(١) هذا هو ما قرره دى سوسير أول الأمر ، ولكنه خلال مناقشاته الفنولوجية عرض لكثير من قضايا اللغة كذلك ، على الأقل من وجهة نظر غيره من اللغويين . انظر : دى سوسير ، محاضرات فى علم اللغة العام ، ص ٣٣ ، ٤٠ ؛ ٥٠ — ٥١ ، ٥٧ وانظر أيضاً ص ٤١ وما بعدها من هذا الكتاب .

وهناك وجهة نظر أخيرة تجدر الإشارة إليها هنا . لاختلافها عما سبق فى بعض الوجوه. وهى نظرة ترتبط برأى أصحابها فى اللغة ذاتها وفى علومها .

اللغة عند هؤلاء ذات ثلاثة جوانب . هى : المادة الأساسية المكونة لها substance وتتحقق فى الأصوات فى صورتها المادية . والصيغة أو التركيب structure . وسياق الحال context . وهو يعنى ربط اللغة بالظروف والأحداث الخارجية فى البيئة .

هذه الجوانب الثلاثة يقوم بدراستها عدد من النظم أو المستويات اللغوية تنضم كلها فى إطار عام واحد سموه هم « علوم اللغة » linguistic sciences (بصيغة الجمع) .

وبشىء من التفصيل يقررون أن المستوى الذى يخصص لدراسة المادة الصوتية هو « الفوناتيك » phonetics . أما الذى يقوم بدراسة الجانبين الآخرين معًا فهو ما أطلقوا عليه « علم اللغة » linguistics بصيغة المفرد . وهذا الأخير تنضم تحته مستويات فرعية هى . علم القواعد والمعجم ويختصان بدراسة التركيب، ثم علم الدلالة أو السيمانتيك semantics وينظر هذا الأخير فى عملية ربط اللغة بسياق الحال .

وبهذا يتضح أن « الفوناتيك » ليس جزءاً من علم اللغة ، وإنما هو قسيمه وقريعه، وهما معاً يكونان « علم اللغة » . ولكن العلاقة بينهما علاقة وثيقة ، لاتفاقهما فى الموضوع والغرض . وإذا كانت اللغة عبارة عن ضوضاء تتسم بالتنظيم فإن الفوناتيك يدرس الضوضاء وعلم اللغة يبحث فى هذا التنظيم وقواعده .

أما الفنولوجيا فهو مستوى خاص من البحث اللغوى . هو فى الموقع الوسط بين الفوناتيك وعلم اللغة ، أو هو بمثابة الواصلة أو الرابطة التى تربط بينهما . إن الفنولوجيا يقدم وسائل ربط المادة الصوتية بالصيغة أو التركيب اللغوى ؛ إذ هو الذى يقوم بوضع أصوات اللغة فى أنماط ونظم تستغل فى بناء التركيب اللغوى وعناصره . ولهذا السبب ينسب الفنولوجيا عند هؤلاء القوم إلى كل من الفوناتيك وعلم اللغة. وتناقش مبادئه وأسس البحث فيه فى إطار البحث فيهما معًا . ومعنى هذا فى النهاية أن الفنولوجيا ذو ارتباط وثيق بهذين العلمين ، ولا غنى لأحد هذه الثلاثة عن الآخر . إذا كان لنا أن نصل إلى نتائج دقيقة فى دراسة اللغة [1] .

---

(١) من أنصار هذا الاتجاه : هاليدى وماكنتش وسترفنز ، فى كتابهم : « علوم اللغة وتعليم اللغة » ، انظر ص ٩ ، ١١ ، ١٥ ، ١٧ — ١٩ ، ٥٧ ، ٦٣ — ٦٤ من الكتاب المذكور .

ونحن من جانبنا نقرر أن الفوناتيك والفنولوجيا ليسا إلا مرحلتين أو خطوتين من خطوات البحث ، وكلاهما مرتبط بصاحبه ومعتمد عليه ؛ فمادتهما واحدة وهى أصوات اللغة ، وهدفهما واحد ، وهو دراسة هذه الأصوات . والفرق بينهما إنما هو فى المنهج والطريقة . ومن ثم لا يجوز الفصل بينهما أو عزل أحدهما عن الآخر . شأنهما فى ذلك شأن الأحداث اللغوية التى هى موضوع البحث فيهما (وفى غيرهما من علوم اللغة) . فهذه الأحداث — كما نعلم — مكونة من عناصر صوتية وصرفية ونحوية إلخ . ولكنك لا تستطيع بحال أن تفصل نوعًا من هذه العناصر عن العناصر الأخرى ، اللهم إلا عند التحليل اللغوى على المستوى المعين . على أن هذا التحليل الجزئى محدود بوقت وهدف . وليست له فى الواقع قيمة عملية ما لم تنضم نتائجه إلى نتائج التحليل على المستويات اللغوية الأخرى .

وإذا كان لنا أن نفصل بين الفوناتيك والفنولوجيا فإنما يجوز ذلك فى حالتين :

١ — عند العرض الخاص لمناهجهما وطرق البحث فيهما وتحديد الإطار العام لعمل كل منهما .

٢ — عند التحليل المرحلى للأصوات ، فقد تبدأ بتحليل فوناتيكى ، ثم تعقبه بآخر فنولوجى . على أن هذا التحليل نفسه محدود وموقوت ؛ فالتحليل الفوناتيكى الصرف ليس هدفا فى ذاته ، وإنما هو خطوة فى الطريق ، ولا تعدو أن تكون خطوة ممهدة لغيرها من الخطوات . أضف إلى هذا أن رجل الفوناتيك حين يمارس هذا التحليل الضيق لا يستطيع أن يتخلص تمامًا من التأثير الفنولوجى الذى قد يتمثل — على أقل تقدير — فيما يجرى فى ذهنه من أفكار ولمحات فنولوجية ترجع فى الغالب إلى انطباعاته الذهنية ، وخبراته السابقة أو الحالية بأصوات اللغة التى يقوم بدراستها .

حالة واحدة تلك التى يبدو فيها الفصل واضحًا بين التحليل الفوناتيكى والفنولوجيا . تتمثل هذه الحالة عند الإشارة الصريحة إلى ميكانيكية النطق وخواصه الفسيولوجية ، وعند العكوف على إجراء التجارب الصوتية فى المعامل ، قصداً إلى التعرف على مميزات هذه الأصوات من ناحيتها العضوية والفيزيائية . على أن هذه الحالة هى الأخرى لا تلبث أن تنضم إلى مراحل البحث وتصبح حلقة متصلة من حلقات الدرس الصوتى بعمومه ؛ فوناتيكيًا وفنولوجيًا معًا .

وفى كل الظروف على كل حال ، استقر الرأى لدينا على أن الفنولوجيا — بمعنى نظام

البحث فى الأصوات من حيث قيمتها ووظائفها فى اللغة — لا يمكن تصوره منفصلا برهة واحدة عن الفوناتيك عند مراحل التطبيق والتحليل الفعلى للأصوات .

هذا كله ليس من الخطأ أوسوء التقدير أن ننظر إلى الفرعين على أنهما جانبان لشيء واحد وأن نشير إليهما معًا باسم واحد هو « علم الأصوات » . ما لم تكن هناك ضرورة علميةملحة، وذلك عندما يكون العمل مركزاً على أحد الجانبين دون الآخر . فى هذه الحالة الأخيرة يكون الأولى والأوفق ، تعيين كل جانب منهما بالمصطلح الذى يدل على هذا التعيين : فالفوناتيك للدراسة الصوتية المحضة التى تتضمن النواحى النطقية والفيزيائية . والفنولوجيا للدراسة التى تعمد إلى وضع القوانين والقواعد العامة للأصوات وإلى الكشف عن وظائف هذه الأصوات فى اللغة المعينة . وعلى هذا النهج سوف يجرى العمل فى هذا الكتاب .